ثنائية: الحداثة-التقليد
مقاربة لفهم الحداثة التصنيعية عند "عمال ألزانك"[1]

Dualism: “modernity and tradition”
An Approach to understanding manufacturing modernity in Alzinc workers

د.حفيظة قباطي

المركز الجامعي بلحاج بوشعيب بعين تموشنت،الجزائر.
Email:hafida.kebbati@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/11/17 تاريخ القبول2020/08/30

ملخص:

شغلت إشكالية الحداثة ولا زالت تشغل كل الباحثين في السوسيولوجيا، وبالتحديد مفهوم ثنائية الحداثة والتقليد في تفسير مسار التطور الصناعي والاقتصادي والثقافي في الجزائر. سبقنا في هذا مؤسس من مؤسسي سوسيولوجيا العمل في الجزائر، السوسيولوجي جمال قريد، في حين أتناولها من وجهة نظري الانتروبولوجية من خلال التساؤل التالي: كيف نفهم الحداثة التصنيعية في الجزائر؟ هل من وجهة نظر العصرنة والعقلانية أم من وجهة نظر التطور والثقافة؟

هذا الجدل القائم في إشكالية الحداثة بمفهومها الصناعي الاقتصادي في الجزائر يفرض علينا كباحثين استعمال المناهج والتقنيات الحديثة لفهم الواقع كما يصرح به الفاعلون الذين عايشوه، وأقصد هنا بالتحديد العمال بكل فئاتهم وكذلك الإطارات الذين تم تكليفهم بتطبيقها.

فكيف طبقت فكرة الحداثة في الميدان وكيف عايشها العمال داخل المصانع، أي كيف عايش عمال ألزانك هذا المشروع في ورشاتهم بعيدا عن إيديولوجية القرار السياسي.

الكلمات المفتاحية: حداثة ؛ تقليد ؛ تطور ؛ صناعة ؛ عمال.

Summary:

The problem of modernity has occupied and continues to preoccupy all sociologists, in particular the concept of dualism: "modernity and tradition" in interpreting the course of industrial, economic and cultural development in Algeria. This is preceded by one of the founders of sociology of work in Algeria, sociologist Jamal Guerid.

This controversy in the problem of modernity in its industrial and economic concept in Algeria forces us as researchers to use modern methods and techniques to understand the reality as declared by the actors who experienced it. While I deal with it from my perspective of anthropology through the following question: How do we understand the modernity of manufacturing in Algeria? Is it from the standpoint of modernity and rationality or from the point of view of evolution and culture? I mean here specifically the workers in all their categories as well as the frames they were assigned to implement.

How was the idea of modernity applied in the field and how workers lived in the factories, how the workers of Alzinc lived this project in their workshops away from the ideology of political decision?

Keywords: modernity; tradition; evolution; industry; worker

د.حفيظة قباطي : **Email :hafida.kebbati@gmail.com**

أولا: مقدمة:

لا تخلو إشكالية الحداثة من بعض التباينات الفكرية والإيديولوجية والأكاديمية، ولا يزال التساؤل قائما حول ماهية الحداثة في مجتمعات ما بعد الحداثة؛ ولكن ككل محاولة علمية نقدية سأقدم وجهة نظري وطرحي لثنائية الحداثة والتقليد.

مصطلحان يكاد يكونان جوهريان في الطرح العلم اجتماعي العربي إن صح التعبير حتى لا نقول الطرح السوسيولوجي الذي ينّم ربما عن فهمنا الغربي لهاذين المصطلحين، ولكنني في سعيي هذا لتحديد مفهوم الحداثة والتقليد لا أدعِ الجدّة في الطرح بقدر ما أجعله مسعىً لمحاولة مناقشة الطرح بين

الأكاديميين والعاملين في الحقل العلم اجتماعي في الجزائر ولما لا في الوطن العربي.

ثانيا: مفهوم الحداثة:

بدايةً يجب تحديد مفهوم الحداثة والتقليد حتى يكون مدخلنا إلى الموضوع المطروح ممكنا، فما هي الحداثة؟ وما هو التقليد؟ كما يجب أن نطرح سؤالا جوهريا: لماذا هذا المسعى الملّح لتحديد هاذين المصطلحين؟

بالنسبة لي أجده مهماً لأنه يدخل في مشروع النظرية الاجتماعية العربية، فنحن بحاجة للتأسيس لمصطلحاتنا وفكرنا وبحاجة للنهوض الفكري على الأقل بوعينا، بذاتنا ومعالمنا وذاكرتنا وهذا هو التقليد حسب رأيي وهو الذي سيوصلنا للحداثة بمفهومنا أيضا لها، من هذا المنطلق أعرّف الحداثة على أنها ذلك التبني لكل شيء جديد وعصري ومتطور فكريا وماديا وتقنيا وربما حتى عقائديا ولكن في وعاء التراث والذاكرة والأصالة وهذا تعريفي للتقليد الذي هو بالنسبة لي مجموع التراث والذاكرة الجماعية والأصالة وما ترسب في عقولنا وأفئدتنا وأرواحنا كأمة وتاريخ وحضارة وشعب منذ قرون وحضارات مضت ووصل إلينا بالشكل الحالي.

وهو رأيي الشخصي على الأقل من وحي فكري وتكويني ومعايشتي للعالم التقليدي والعالم الأكاديمي وحتى النخبوي إن صح التعبير ولكن هذا يدفعني من باب الأمانة الفكرية إلى الإقرار ببعض الالتباسات التي قد يقع فيها القارئ والمهتم بهذا الطرح.

وهو أنّ هذا الطرح يتطلب أطروحات أخرى ونقاشات جدية وأكاديمية لفهمٍ أعمق لمقاربة الحداثة والتقليد، هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فأنا أرى أنه توجد عدة أشكال للحداثة وهذه الفرضية التي أتبناها في طرحي...فبعد التعريف الإجرائي للحداثة أقر أنه توجد عدة أشكال للحداثة وهي تتبنى في ظل الثورة الرقمية التي نعيشها عدة أشكال وتتلون حسب الأذواق والمشارب

والانتماءات...ولعل هذا هو الإشكال الكامن في مقاربة الحداثة والتقليد الحديثة لأن المقاربة الكلاسيكية تتبنى الحداثة بالمفهوم الكلاسيكي الإستشراقي الانتروبولوجي الغربي وتجعل التقليد معاكسا لها.

إذن سعيي بسيط وينطلق من التصور المفاهيمي والتطبيقي، فمن الناحية المفاهيمية والمنهجية، فككت الموضوع إلى وحدات صغيرة لأتمكن من فهمها فطرحت الأسئلة التالية:

- ما هي الحداثة؟
- ما هو التقليد؟

تتعدّد المفاهيم والمصطلحات التي تشرح التقدم والحداثة وهذا ما يزيد الأمر تعقيدا عندما تستعمل في غير مكانها، فنجد الحداثة تحيلنا إلى مصطلحات مثل: الحديث، الجديد، العصري، المعاصر، التقدم والتطور أما التقليد فيحيلنا إلى مصطلحات مثل القديم، التقاليد والتأخر. والمتمعن قليلا في هذه المصطلحات يجدها تنقسم إلى قسمين: معاني ايجابية تحيلنا إلى الحديث والجديد والعصري وعكسه التقليد والتقاليد ومعنى سلبي يحيلنا إلى التقدم والتطور وعكسه التأخر والتخلف. وهذا المعنى السلبي هو الذي يطبع فكر الحداثة الغربي الذي يرى كل شيء آخر مخالف للفكر الغربي متأخرا ومتخلفا، بينما توجد الحداثة بالمعنى الايجابي والتي أطرحها للنقاش في مقالي هذا وهي الحداثة بمعنى الحديث والجديد وامتزاجه مع التقليد والتقاليد.

إذن هنالك ثنائية مهمة للطرح والنقاش:

الحداثة في ظل ثنائية: العصرنة والتقليد

الحداثة في ظل ثنائية: التطور والتخلف

ومن منطلق هذه المفاهيم نطرح السؤال التالي: هل تعني الحداثة التقدم والتطور أم أنها بالنسبة لتراثنا العربي الإسلامي تنشأ من خلال التقليد وليس عن طريق الصراع أي بمعنى التكامل والتناسق والتساند حسب الطرح الوظيفي.

من هذا الطرح يصبح الحديث شيئا طبيعيا يواكب التقليد ويُحمّله رداءا من الحداثة بعيدا عن مفهومي التطور والتقدم اللذان يحملان ضمنيا وصما بمجانبة التأخر؛ وشتان بين مفهومي التقليد والتأخر.

إذن أطرح وأتبنى هنا مفهوم الحداثة بمعنى التكامل بين الحديث والتقليد وهذا يحيلني إلى ثنائية الحداثة-التقليد والتي لا يمكن فصلها حسب وجهة نظري. فلا توجد حداثة بدون تقليد ولا يستمر التقليد إلاّ من خلال قنوات التجديد. فمعضلة الحداثة الغربية هي مثل معضلة الدولة الغربية والسياسة والثقافة الغربيتين، فالمنطلق الغربي للحداثة يفصل مشروع الدولة والعلم عن الدين والمنطلق العربي الإسلامي يلاحم الحداثة بالتقليد والثقافة والدين في قالب جديد ومتجدد.وقد كانت ثلاثية (التصنيع-المؤسسة-العامل) أداةً ممتازة للحداثة من منطلق النظرة الغربية التقدمية التطورية للحداثة، أداتها التي تنشر قيم الحداثة الغربية، أما الحداثة العربية الإسلامية فأدواتها إحياء التراث وإعادة بعث الذاكرة والتاريخ في قالب جديد وعصري وهذه فرضيتنا في هذه المقاربة.

ثالثا: أدوات الحداثة بمفهوم التطور:

1. التصنيع كمشروع حداثي:

المستوى الثاني في طرحي هذا هو وجهة نظر علم الاجتماع التطبيقي الإمبريقي الذي يسائل الميدان ويؤمن بالواقع كمصدر وحيد للمعرفة، وهذا

الميدان استكشفناه في إطار دراسة أكاديمية امتدت من سنة (2005-2013) اقتربنا فيها من عمال ألزانك بمدينة الغزوات، وربما تكمن خصوصية هذه المدينة الصغيرة أنها صناعية بامتياز فهي تضم المصنع الأول من نوعه في إنتاج معدن الزنك عربيا والثاني إفريقيا والخامس على مستوى العالم وهذا الاختيار وإن كان في البداية لأسباب ذاتية وموضوعية مشتركة فقد تبين بعد إتمام الدراسة أنه اختيار منهجي بامتياز يسلم به الطرح السوسيولوجي الأمريكي الامبريقي فأغلب الدراسات المؤسّسة في علم الاجتماع هذا اختارت كوحدات للدراسة مجتمعات محلية لها خصوصيات صناعية تفسر التغير الاجتماعي مثل دراسات هاوثورن ويانكي سيتي وميدل وتاون وغيرها الكثير.

يبقى مجرد تشابه في منهجية اختيار مجال الدراسة ولكن الأهداف من الدراسة تختلف فربما لأول مرة أعلن أنني نزلت الميدان في البداية بهدف استكشاف الحياة المهنية في ظل التصنيع ولكن بعد أن وقع بحوزتي عمل بيار بورديو عن كتابه "بؤس العالم" انطلقت بفكر جديد يتبنى فكر بورديو في إعطاء الكلمة للمهمشين والذين ليس لهم الكلمة ليقولوا كلمتهم أي بالمعنى التالي:

ماذا يقول العامل – وهو "الأداة المباشرة واللاّواعية للحداثة"- عن الحداثة والمجتمع والعقلانية والتصنيع وما هو رأي هذه الفئة المعبأة التي استعملت في قالب إيديولوجي تنموي لتقود تغيير المجتمع نحو الأفضل والتطور والتقدم وترسيخ الفكر العقلاني وقيم العمل والوقت والتضامن العضوي كقيم جديدة في مجتمع اختار وجهة الحداثة الغربية منسلخا عن ذاته ونفسه وروحه وكينونته التاريخية والفكرية والعقائدية والنفسية نحو طريق قادنا إلى أحداث أكتوبر 1988 وتبعاتها.

حيث يذكر جمال قريد في الدراسات المتعلقة بدراسة العمال الصناعيين أنّ هنالك اقترابان مختلفان ويلتقيان في أمور جوهرية، الفهم الشائع

للماركسية وعلم الاجتماع الليبرالي، وينظّران للمصنع كعالم للعقلانية والفعالية وكمؤسسة للتنشئة الاجتماعية والتثقيف ويسلمان بالنموذج العمالي الذي أنتجه التصنيع الكلاسيكي، وينظران إلى العمل الصناعي كعنصر ينشر في المجتمع معايير وقيم العقلانية والتقدم.[2]

كذلك "ألحّت نظرية التحديث على أهمية المصنع كمؤسسة لإعادة التنشئة الاجتماعية في بلدان العالم الثالث، بينما تنزع الماركسية أكثر إلى التنظير وقد وضعت تسميات مختلفة لوصف عمليات التصنيع والتحديث الجارية في بعض البلدان؛ المرحلة الديمقراطية الوطنية أو طريق التنمية اللاّرأسمالية، تهدف هذه التسميات إلى التركيز على الحتمية التاريخية لهذه المرحلة وعلى طابعها التقدمي. والخلاصة أنه لا وجود للعامل على العموم، الوجود فقط لعمال خصوصيين، فالبروليتاريا التاريخية التي تم التنظير لها والبروليتاريين الحقيقيين الواقعيين يرفضون النظريات المعدة.[3] وهذا ما يؤكده كلود دوبار من خلال المقابلات التي أجراها حيث لم يكتف بالعوامل المشتركة المحتملة بينها وبالتالي يرى أنها غير كافية لتطوق شكلا هوياتيا مشتركا.[4]

2- ايديولوجية الشعبوية العمالية:

أُعتبر العمل الأجير والمؤسسة العمومية في هذه المرحلة، الشريك الفعّال للدولة في عملية توزيع المداخيل بالتوازي على الشعب عبر توزيع عادل للأجور. وتعبر عبارة فرانسوا بيرو بامتياز عن هذا الامتزاج بين الحداثة والتقليد، فعبارة "التصنيع هو الذي يقودهم إلى التقدم وتحسين مستوى المعيشة" تعبر عن الحداثة بالمفهوم الغربي، وعبارة "حتى تتم هذه العملية واقعيا كان يجب أن تتبناها الطبقة الشعبية" تنم عن أهمية العنصر البشري والقيمي والثقافي الذي يتبنى عملية التصنيع ظاهريا وفكر الحداثة ضمنيا.

ولعل أفضل وسيلة ليتبناها الشعب هي فكرة المساواة والتي رسختها ميدانيا فكرة الشعبوية في الجزائر مباشرة بعد الاستقلال السياسي، فكان لزاما على

الدولة التفكير في تحقيق الاستقلال الاقتصادي إذ يعبر عن ذلك فرنسوا بيرو: "أنّ التصنيع مطلوب كوسيلة لحذف التبعية الاقتصادية التي استمرت بعد الاستقلال السياسي للجزائر، وحتى تتم هذه العملية واقعيا كان يجب أن تتبناها الطبقة الشعبية. وأنّ هذا التصنيع هو الذي يقودهم إلى التقدم وتحسين مستوى المعيشة. وباعتبار تأثير هذه الأخيرة على المحيط وجب أن تكون فاعلة وأن يكون المحيط بدوره مستوعباً لها".[5]

يبدو لنا الآن أن الحداثة والتقليد عنصرين مهمين لا يكاد يفترقان، كثنائية اليين واليانغ في الثقافة الصينية، هكذا هو الأمر في إشكالية الحداثة فلا توجد حداثة بدون تقليد ولا يمكن أن توجد حداثة من الفراغ، فأين هي حداثتنا وما هو المشروع الذي سيقودنا إليها؟

وحتى ننتقل إلى هذا المستوى من التحليل وجب علينا أن نفهم أولا كيف تبنّى العمال هذه الحداثة التقدمية وما هي نتائج هذا التبني، لأنه وحسب رأيي تعتبر نتائج هذه المرحلة مهما كانت نوعيتها مهمة جدا لفهم حاضرنا وتوجهاتنا المستقبلية.

فقد كانت سنوات الستينات وأغلب السبعينات تنّم حسب رأي نور الدين سريب عن مرحلة رضا وتفاؤل كما يعبر عنه النمط الجزائري والميثاق الوطني للتنمية حيث تعايش الشعب واستقبل هذه السياسة ولكن ليس دون إخفاقات.[6] و يذكر بني سعد في كتابه "الاقتصاد الجزائري المعاصر" الخلفيات المرجعية لهذه السياسة كما يلي: "خلقت السياسة الاقتصادية منذ 1962 اختلالا بسبب تعارض الأهداف الاستثمارية مع توفر موارد الاقتصاد. فبعض الباحثين يوضحون أنّ الأقطاب التنموية والاقتصاديات المهيمنة الأساسية المشرفة كانوا تاريخيا منطلقا لنمو اقتصادي مختلٍ، غير متوازنٍ وغير متسقٍ على مستوى الفروع والمناطق والطبقات الاجتماعية والدول والأمم."[7]

كشفت بعض المقابلات في دراستنا عن خلفية هذه التناقضات الثقافية-السياسية، باعتبار أنّ الحداثة عن طريق التصنيع لم تكن إلاّ مطلبا سياسيا يلبي احتياجات الدولة والشعب ولكن ليس بالضرورة يلبي الاحتياجات الثقافية للمجتمع. إذ يصرح أحد العمال عن رأيه في تلك الفترة: **"..كان الرئيس بومدين يفكر في مصلحة الشعب ولكنه أخ□أ، فلم يكن الوقت مناسبا للصناعة وتشييد هذا المصنع. فثقافة وذهنية الناس لا تسمح بذلك. إضافة أننا كنا ب□اجة للاستثمار أكثر في ق□اع الزراعة".** (مشرف على التقاعد، 48 سنة).

بعيدا عن القرارات السياسية المركزية نفترض أنّ ثقافة الشعب الجزائري كانت على المستوى الاقتصادي قادرة على تلبية احتياجات السوق الضرورية والاكتفاء الذاتي، فشعب استمر 130 سنة في ظل الاستعمار والاستغلال كان قادرا على الاستمرار بعد تحرير كل أراضيه بخيراتها وثرواتها. لكن السياسة المركزية للجزائر كانت ترى في التصنيع مشروع إيديولوجي في ظل استمرارية النضال من أجل الاستقلال الكامل، وربما رغبة في إثبات وجهة نظر أنّ الجزائر شعبا وحكومة قادرين على التطور.

هذا التصور التقنوقراطي للتطور كان شكلا من أشكال الحداثة، شكلا يلبي مطلبا سياسيا فقط ولكن إيديولوجيا كان يلبي مطلبا غربيا واغترابيا إن صح التعبير وهذا ما أظهرته فترة الثمانينيات التي عبرت عن احتجاج المجتمع ورغبته في حداثة تلبي حاجياته القيمية والروحية والفكرية وليس المادية فقط.

رابعا: المصنع كمجال لإعادة إنتاج المكانة الاجتماعية:

1-الصراع العمالي-التقنوقراطي:

يذكر على الكنز أنّ مشروع التصنيع في الجزائر يعبر عن تناقضٍ بائنٍ، فعندما اكتملت معالمه اختفت الأسباب التي أنشأ لأجلها، خاصة في دراسته عن "مركب الحجار"[8] بعنابة. فالمشروع التصنيعي الحداثي في الجزائر أنشأ بهدف تمكين الشعب من الاستقلال الاقتصادي بعد 1962، ولكن بمجرد اكتمال هذا

المشروع في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات بدأت تلوح في الأفق بوادر التناقض الاجتماعي ورفض المجتمع للقيم الحداثية الجديدة ولكن بشكل عنيف عبّر فيه هذا الأخير عن تمسكه بكل شراسة بقيمه الحداثية الخاصة بأصالته وروحه. بل وتسبب هذا المشروع في عجزنا الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وكاد يقضي على شرعية الدولة الحديثة ولم تكن الإصلاحات إلاّ مؤشرا على ذلك.

فقد أبرزت "التوقعات العشرية والمخططين الرباعيين (مخطط 1980-1984 ومخطط 1985-1989) عزم السلطات العمومية لخفض نسبة المدخول الوطني الموجّه نحو الاستثمارات وتخفيف أسلوب التسيير الاقتصادي"[9].

ثم انتقلنا إلى مستوى الإصلاحات مع نهاية الثمانينات كما يعبر عن ذلك جمال ڤريد قائلا: " شرعت الجزائر ابتداءا من سنة 1990 في عملية معقدة للإصلاحات البنيوية، وكانت الغاية المعلن عنها هي إرساء نظام وضعي للتصديق والإقرار على المستوى الاقتصادي والسياسي من خلال إنشاء ميكانيزمات لاقتصاد السوق رغم الوضع الأمني آنذاك. والانفتاح السياسي برؤية ديمقراطية للدولة إضافة إلى تحرير مؤسساتها ومجالات التعايش الاجتماعي."[10] ولم ننتقل إلى الانفتاح الاقتصادي إلا بعد العديد من الإصلاحات كما يشرحها حسين بني سعد قائلا: "لم تعرف الإصلاحات الاقتصادية والسياسية المجمدة فرجة مميزة إلا تحت وطأة مراجعة موازنة المدفوعات وأحداث اكتوبر1988، هذه الأخيرة التي فتحت الباب أمام انفتاح اقتصادي وسياسي[11].

2- جيل الأنوميا:

ففي ظل هذه الإصلاحات تكوّن الجيل الثاني الذي عاش مرحلة الشرخ بين الإدارة والعمال المشرفين والمنفذين بعد إضراب 89 الذي حمل شعار (أربعة ارحلوا) حيث طالبوا برحيل أربعة إطارات في ذلك الوقت. هذا الإضراب الذي كان مؤشرا على الاضطرابات الاجتماعية التي مست العمال، كيف لا وهم أداة

التغيير الاجتماعي-التقدمي، "فقد تأخذ التناقضات الاجتماعية شكل الصدامات الكلاسيكية، إضرابات وقد تخلق ظواهر صعبة وغير متوقعة، كما يمكن أن تتعاقب على المجتمع مراحل أنوميا، مراحل فوضوية لا نظامية وفجوات من العنف الاجتماعي. فوضعية المجتمع هي التي أدت إلى هذه الأشكال من الصدامات."[12]

تشكل هذا الأخير في ظل التغيرات السوسيواقتصادية التي عرفتها الجزائر في منتصف الثمانينات والتي كان من أسبابها انخفاض أسعار البترول سنة 1986 وبالتالي الديون التي دفعت الجزائر إلى إعادة هيكلة اقتصادها لمواصلة التنمية أو المحافظة على انجازاتها بفضل مساعدات الأفم وبشروط تفرضها على الحكومة الجزائرية. بحيث ارتفعت القروض والديون الخارجية خلال سنة من 36 الى61 بالمائة من نسبة مداخيل الدولة. ونتيجة أزمة البترول وانخفاض قيمة صادراتها بنسبة 38 بالمائة، اضطرت الجزائر التخلص من بعض النفقات بتخفيض وارداتها.[13]

انتهى جيل المساواة (جيلالي اليابس) وفرضت الرهانات السوسيو اقتصادية الجديدة والعولمة سياسات الاقتصاد والخوصصة الجديدة، تهاوى الإحساس بالانتماء الطبقي واقتربت الأجيال العمالية وأصبح الرابط الوحيد بين المكاسب القديمة والطموح المستقبلي يتلخص في المحافظة قدر الإمكان على المكاسب التي حصلت عليها المؤسسة من قبل (فريد)، والعامل بدوره لا يعبر عن رغبة في مكاسب أخرى بل تتلخص كل آماله في استمرارية المسيرة المهنية عبر استخلاف الأبناء وبالتالي المحافظة على مكسب العمل الأجير عبر الجيل التالي. نشأ هذا الجيل في ظروف انقسمت بين فترتين حيث وجدوا في الفترة الأولى الجو العمالي التضامني أين تعلموا وتمهّنوا على أيدي العمال القدامى (آبائهم أو أقاربهم)، اعتمدت تنشئتهم على التواصل بين الأجيال واكتساب الخبرة والمعرفة من المصدر الأساسي.

خامسا: رمزية التقاعد في إنهاء المشروع الصناعي الحداثي:

1-تقاعد العمال:

إذا قدّمنا تحليلا وظيفيا للحداثة الغربية وأثرها على النسيج الاجتماعي نجدها ترفض المتقاعدين بطريقة ضمنية وتحيل مفهوم التقاعد مباشرة إلى مفهوم الشيخوخة، ويصبح المتقاعد شخصا غير منتج اقتصاديا وبالتالي غير مفيد اجتماعيا. بل ويشكل عبئا على الدولة والإنتاج ومنظومة الأسرة الحديثة وبالتالي كانت عملية إقرار التقاعد النسبي تفاديا لتسريح العمال. وبالتالي المحافظة على الاستقرار الاجتماعي، ومن جهة رفضا ضمنيا للعمال الصناعيين فبإحالتهم على التقاعد نحيلهم إلى الاغتراب الاجتماعي وعندما ينتهي العامل الصناعي بإيديولوجيته ينتهي المشروع الصناعي الحداثي والقطيعة بين العمال المتقاعدين والوافدين هو جوهر عملية إنهاء هذا المشروع الاجتماعي الحداثي وإعلانا صريحا من السلطات على بداية جديدة ومشروع جديد.

فالعامل الذي وظف ايديولوجيا وبدون وعي في مشروع لم يحقق فيه كل طموحاته، يرى الاستمرارية لحياته المهنية من خلال إشراك وريثه في المهنة "الابن" أو "أحد الأقارب" أو "أبناء المنطقة" في كل الأحوال. ولكن لم تكن هذه العملية سهلة أو ناجحة كما تصورها العمال فالبعض لم يحققوا رغبتهم والبعض الآخر استغل بعض الظروف لتوظيف أبنائهم الذين خلفوا آباءهم في المصنع. بدأ هنا الشرخ بين العمال-العمال وظهرت مؤشرات ميدانية للفكرة التي تكلم عنها جمال قريد حول (مرحلة الحفاظ على المكاسب)، ولكن وحدها الدراسة الاثنولوجية قادرة على الكشف عن عمق هذا الحراك داخل الورشات والمصنع، وحتى في دراسة مماثلة "لا يعطينا الحراك إلاّ معلومات جزئية جدا حول التبادلات الاجتماعية حيث تجري بين وضعيات محددة سابقا، وحين نعتمد على نظرية الطبقية نستطيع أولا ملاحظة أنه ما بين الأصل الاجتماعي والمكانة التي يتقلدها فيما بعد تتدخل مجموعة من الأحداث الفردية

والجماعية التي تحدد مسارات جد مختلفة."[14] (...) ومن جهة أخرى تتغير الجماعات وتشكل تجمعات ذات مواقف مضطربة خاصة عندما تصبح نسبة المدخول والمكانة في الهرم غير مناسبين ويقودان إلى سلوكات مبتكرة."[15]

إذن لم يعش كل العمال المتقاعدين خروجهم من العمل وإنهاء مسيرتهم المهنية بطريقة سلبية، فالبعض ساعدته الظروف من خلال إعادة إنتاج المكانة الاجتماعية، والبعض الآخر مارس عملا إضافيا أو نشاطا أو على الأقل استثمر أوقات الراحة والحياة العائلية. وهكذا "يعيش البعض التقاعد فعليا كموت اجتماعي بينما يعيشه البعض الآخر كفترة تسمح باهتمامات أخرى واستثمارات."[16]

حيث يصرح لنا أحد العمال عن رأي والده وهو عامل متقاعد في إدماج ابنه بالمصنع: **"كان رأي والدي أن أوظف وأعمل بالمصنع لأن العمل بالصناعة له مستقبل في ذلك الوقت، لكنني أفضل أن يدرس ابني ويتخرج ثم يوظف إطار بالمصنع"**. (ابن متقاعد، 45 سنة)

ويستنتج ليفي ڤوترا أنّ "عملية الشيخوخة ليست فقط عضوية بل اجتماعية أيضا، فالمجتمع الصناعي اختار كقيم له (الشباب، السرعة، الإنتاجية وكل التقنيات الحديثة في خدمتها ولأجل تطويرها وتحتل شيئا فشيئا كل الحقل الاجتماعي غير تاركة المكان للآخرين."[17]

وهذا ما استنتجناه من تصريحات العمال الذين يرفضون المصنع ومشروعه الحداثي جذريا، في حالة عدم تبنيه لقيمهم الاجتماعية وأهمها التضامن الآلي بين أفراد المجتمع المحلي، فهم يرفضون هذه المؤسسة التي لا تلبي عنصريا ثقافيا مهما توارثوه عبر أجيال مضت وهو أن تكون استمرارية في الحرفة من الأب إلى الابن، بعض العمال صرحوا على هامش المقابلات أنهم في الأصل من عائلة البحارة الصيادين وهي حرفة توارثها سكان الغزوات عن آبائهم منذ أجيال عديدة، وانتقلوا للعمل بالمصنع وشكلوا مجموعات عمل داخل الورشات مثلما

فعل آباؤهم البحارة الصيادين، فهم يرفضون الغرباء بينهم ويفضلون العمل مع أقربائهم وأصدقائهم وتؤدي اللهجة المحلية دورا أساسيا ورمزيا في التنشئة داخل هذه المجموعات، لذلك فهي تمارس الرفض التلقائي لكل ما هو مختلف.

ويصرح هذا العامل برغبته في توظيف ابنه بالمصنع وفي تصريحه لا شئ مهم بالقدر الذي يبقى مصنع "ألزانك" لأبناء المنطقة أو يتم غلقه نهائيا، ففكرة اليد العاملة من خارج المنطقة تبدو غريبة ومستحيلة: **"لو كان لدي ابن لتمنيت أن يعمل بهذا المصنع ليضمن مستقبله،أما الآن فلم يبق من يريد العمل فعلا، فشباب اليوم يبحثون عن الأجر...فقط نحن العمال القدامى من نبذل مجهودا في العمل...لهذا نتمنى أن يستفيد منه أبناؤنا أو شبابنا وإلا فليغلق أبوابه."** (عامل متقاعد، 55 سنة)

1-التمايز العمالي في مصنع ما بعد الحداثة:

نشأ الجيل الثالث من أبناء العمال المتقاعدين والمهندسين الجامعيين الذين توظفوا بعقود مؤقتة، في ظروف مضطربة غير واضحة المعالم الاقتصادية والاجتماعية. ظروف لا تضمن استمرارية المؤسسة ولا توجد ضمانات بمكانة مهنية واجتماعية مستقرة وجيدة ولا ضمانات بالارتقاء في العمل ولا ضمانات بتقاعد جيّد في المستقبل نظرا للتغيرات الديمغرافية وأثرها على تسيير المعاشات والتوفير على مستوى صندوق التقاعد واشتراك الأجراء الجدد بها.

واستمر هذا الجيل في ظل ظروف جديدة تبلورت في إطارها هوياتهم وبدأت تظهر الفوارق وتتمايز الهويات الفردية وأصبح العمال القدامى-كل حسب موقعه- يأملون بإشراك أبنائهم أو ما اعتبرناه مؤشر على إعادة بناء المكانة الاجتماعية. ظهرت أولى مؤشرات التمايز مع ظهور الصراع العمالي-التقنوقراطي واتضحت مع خروج أغلب العمال القدامى في ظروف صعبة. تؤكد بولدوك في

دراستها عن العمل والتقاعد بكندا نفس المصير الذي عرفه العمال: " تحت تأثير العدد سنواجه خروج مسبق على التقاعد في العشر سنوات المقبلة، ويبقى عدد الشباب الداخل لسوق العمل ضئيلا. بين هاذين الجيلين من العمال يتموقع الأشخاص المتعلميين ما بين 30-45 الذين ينتظرون المسنين أن يتركوا وظائفهم ليأخذوا مكانتهم"[18] بينما تحفز بعض المؤسسات على التقاعد المسبق من أجل تقليص كتلة الأجراء، وبعضهم يشعرون "مدفوعين للتقاعد" والآخرين يلجأون إلى أساليب لتمديد الحياة النشطة".[19]

نحن نتحدث عن التمايز الهوياتي العمالي في النمط الجديد للعامل التقني الجامعي ولذلك لا نرجح فرضية أن يكون هذا الوضع لما أخبرتنا عنه الدراسات الفرنسية بخصوص الطبقة العمالية الجديدة، ما عدا ذلك التشابه في اندماج المهندسين والتقنيين والعمال المنفذين في فئة عمالية واحدة في مصنع ألزانك: "بأنّ العمل يصبح فكريا ويبدأ التقنيون وأصحاب المآزر البيضاء بتسلّم ريادة حركات المطالبة، فتغير نمط العيش والحركية الأكبر بين الأجيال، هما من علامات نهاية ثقافة الإقصاء وتراجع الإحساس بالانتماء الطبقي. هناك تراجع ملحوظ للأطروحة المعاكسة (عمال/غير عمال)، (يدويون/غير يدويون)، وتسيطر المكننة على العمل، وتتزايد نسبة النشاطات الفكرية والتعديل النوعي للأعمال؛ كل هذه العناصر تفسر وتؤكد هذه النزعة."[20]

سادسا: جيل الوافدين أم طبقة عمالية جديدة:

فتحت هذه الملاحظات نقاشا بين علماء الاجتماع حول "ثراء الطبقة العمالية"، كانت الطبقة العمالية الجديدة كما أسماها "سيرج ميلي" مكونة بشكل كبير ومنظمة من طرف تقنيين وعمال جد مؤهلين قد لاحظهم في مجال الالكترونيات المحترفة وصناعة الإعلام الآلي. وأصبح تعريف الطبقة العمالية أكثر صعوبة، بالنسبة له الأمر يتعلق بالبحث عن تأسيس قدرات نقابية للتحكم في التوجه الاقتصادي للمؤسسة."[21]

فقد تحقق سيرج ملي في سنوات الستينات من فكرة أنه " في بلد متطور مثل فرنسا سنعيش تحول في الطبقة العمالية وتمديد لها بطريقة ما من الأعلى" par le haut". فهناك عمال يؤدون أعمال أكثر وأكثر تعقيد ودقة يعتبرون من التقنيين، والعكس صحيح بمعنى أنّ المهندسين والتقنيين باعتبارهم مجرد أجراء أكيد أكثر تأهيل ولكن معرضين لمتطلبات الإنتاج الرأسمالي يقتربون من العمال. فالحدود بين العمال " الياقات الزرقاء" والموظفين "الياقات البيضاء" تتلاشى باستمرار داخل طبقة عمالية واسعة وتقنية وكانت هذه فكرة الطبقة العمالية الجديدة." كانت هذه الفكرة مثيرة للاهتمام وعبّرت فعليا عن تطورات حقيقية وكان لها الفضل في تلك الفترة في البحث والاهتمام بالتحولات في العالم العمالي ولكن كانت أيضا تحمل أوهاما. وينتقدها أوليفي شفارتز بأنّه حقا عرف العمل العمالي تحولا منذ سنوات الستينات، تحول في أغلب الأحيان إلى أكثر تقنية وينتمي إلى القطاع الثالث (قطاع الخدمات) ولكن مميزات الوضعية العمالية لم تتغير بعد فصعوبة العمل، عدم الأمن والقلّة أو الزيادة الضئيلة في الأجور إن لم نقل ثبات الأجور.[22]

حيث يعتبر نوبل " أنّ المهندسين الميكانيكيين نقلوا ثقافة الورشة في الأقسام الجديدة للشركات، ليجدوا بهذه الطريقة حلول للتهديد الذي يشكله أصحاب المؤسسات. فالتعقيد المتنامي للمؤسسات وحجمها ووصول عاملين متكونين في المحاسبة والإدارة سيؤدي إلى خفض السلطة والصلاحيات المستعملة من طرف العمال المؤهلين في مجال تنظيم الانتاج كما هو في العلاقة مع العمال.(...) فاقتحام العلوم الاجتماعية للتصنيع هو قبل كل شيئ براغماتي، لقد استعملت من طرف المهندسين...في هذا الاطار من المهم اتباع هذا التاريخ لملاحظة التدبير المستعمل من طرف المؤسسات لتنشئة اليد العاملة للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية (نوبل،1977).[23]الأكيد أنه الجيل الذي لم ولن

يعرف النقلة النوعية من فلاح إلى عاملٍ أجيرٍ متمدنٍ، بل هو الشاب الذي نشأ في المدينة ودرس بالجامعة والطريق أمامه طويلة ومجهولة ليجد عملا مستقرا.

هذا الجيل الجديد في ألزانك هو جيل الشباب الجامعي والمتمهن الذي استفاد من فرص عمل في وقت تعيش فيه مدينة الغزوات نسبة كبيرة من بطالة الجامعيين وغير الجامعيين، هو جيل يقتنص الفرصة ويتعب ليجد عمل وقد يلجأ إلى المعرفة أو يستفيد من وجود أحد أقاربه.

تشير بولدوك في دراسة حديثة عن المتقاعدين إلى تغير هرم السكان بكندا: بحيث " تغيرت الوضعية منذ 25 سنة الماضية، فقد انخفض عدد الشباب وارتفع تعليمهم بينما ارتفعت نسبة الأشخاص المسنين وأصبحت أقدميتهم في العمل لا تضمن لهم الحماية كما في السابق. في هذا السياق ومنذ سنوات كان العمال المسنين يهمشون لأسباب مثل القضاء على البطالة، لأنّ تحفيز عامل مسن على التقاعد يمكّن شاب من ايجاد عمل. فالبحث الدؤوب عن أحسن مردودية وانتاجية بسبب انفتاح الأسواق لا يترك إلاّ مجالا ضئيلا لعاملٍ مسنٍ، حيث يتهم أنه غير قادر على مجاراة العصرنة. وهكذا تعقّد سوق العمل تحت تأثير المدّ الديمغرافي وتأثير عولمة الأسواق على توازنها."[24]

" أمام هذه التطورات يتساءل علماء الاجتماع عن المهمات الجديدة للطبقة العاملة والتي يتبلور تحولها ضمن مفهوم "الطبقة العمالية الجديدة". يتفق الباحثون على عدد معين من الميزات الاقتصادية والاجتماعية التي تعرفها. بحيث تضعف وتتراخى الروابط بين العمل وطريقة العيش (أسلوب العيش)، و يتزايد نمو الطبقات المتوسطة. وتصبح ظروف الحياة نسبيا مشتركة بين جميع الطبقات. كما أننا نشهد نهاية ثقافة الإقصاء، من تجانس أنماط العيش، اختفاء واندثار الضواحي الحمراء لفائدة الأحياء السكنية التي تتمازج فيها الطبقات الاجتماعية بشكل كبير؛ وزيادة نوعية في أوقات الفراغ والتي أكّد عليها فرايدمان مسبقا والاتجاه نحو الاستهلاك الواسع بكميات كبيرة. وينظر للعمل

كوسيلة للاستهلاك أكثر من كونه غاية في حد ذاته، وتنزع هذه المواقف الجديدة للتقريب بين الأوساط الاجتماعية وتعزيز أطروحة نهاية الإيديولوجيات."[25]

في هذا الجيل فرضت الظروف الاقتصادية الجديدة توجهات وانتماءات العمال وأصبح الشكل الغالب هو التمايز الاجتماعي، فهنالك علاقة جديدة تنشأ بين الأجيال ويندمج الشباب الجامعي جنبا إلى جنب مع عمال متوسطي المستوى التعليمي الذين تعلّموا على أيديهم في الورشات.

كذلك لاحظ علي الكنز هذه الطبقة العمالية الجديدة في دراسته عن الحجار إذ يقول: "انتهى المصنع سنة 1982 وبلغ عماله 18000 وتطلب 15 سنة لتشييده، حيث بسببه وخلاله تشكل المجال الاجتماعي الجديد للمنطقة حول أسس اقتصادية جديدة وحول منطلقات تمايز اجتماعي جديدة."[26]

تميز هذا الجيل العمالي بأزمة الهويات المهنية فالحدود والفواصل التي كانت تحددها بدأت تتلاشى وتتماهى، بل انهار المجال الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت تبنى في إطاره، وعندما يموت الآخر (هوياتيا) أموت أنا، فالفعل الهوياتي فعل غيري بامتياز حسب بُنوا الذي يؤكد: " أنّ هوية "الظاهر" أو الهوية الصرفة والقويمة يجب أن تترك المكان لالتماس واقتفاء بنيات عميقة تشكل وتكيف الهوية في طابعها العلائقي، فمسألة الآخر تظهر قطعية في بناء الهوية".[27] ويقودنا تطور قانون العمل للتساؤل عن الوهن الحالي لمكانة الأجير في المدينة في إطار الانفتاح والعولمة، (...) فالوظيفة المستقرة المؤهلة المأجورة جيدا أصبحت اليوم أسطورة؛ "في محيط لا تندرج فيه علاقات العمل ضمن الديمومة حيث تشارك المدينة بتطورها في هذا الانحطاط."[28]

ثامنا: الخاتمة:

إن الرهان الحداثي في الجزائر يختلف تماما عن مفهوم الحداثة في عمقها الأوروبي والغربي، فهو رهان سياسي واجتماعي وثقافي عميق جدا؛ حاولت من خلاله السلطات العليا في البلاد في ذلك الوقت أن تقود ثورة أخرى تكملة لثورة

التحرير. ثورة حداثية إن صح التعبير تنطلق من عمق المجتمع يتولى قيادتها التقنوقراطيون ويتبناها ثقافيا واجتماعيا العمال باعتبارهم الوسيط بين فلسفة المشروع الحداثي وثقافة المجتمع المحلي، إلى هنا يبدو المشروع واعدا وطموحا على المستوى السياسي لكنه في الحقيقة كان يحمل بوادر انهياره في نفس الوقت. فأغلب الدراسات السوسيولوجية حول سوسيولوجيا العمل في الجزائر بداية بأهم دراسة وهي "المجتمع والتصنيع" للثلاثي قريد والكنز وسعيد شيخي، بينت أسباب هذا الفشل من خلال التناقض الثقافي الهوياتي الذي عاشة العمال داخل مركب SNS.

كما توالت دراسات عديدة من الرعيل الأول تناولت إشكالية التناقض الثقافي بين الثقافة المحلية للمجتمع والثقافة الحداثية الاروبية للتصنيع. تجلى هذا التناقض في الصراع الذي عاشه العمال مع الاطارات والتقنوقراطيين وانتهى بانهيار المشروع وعبرت عنه مرحلة التقاعد المبكر الذي لجأت إليه اغلب المؤسسات الصناعية العمومية آنذاك محاولة تفادي عملية تسريح شاملة للعمال الذين انتقلوا من دور الوساطة إلى دور الضحية.

لم ينتهي المشروع نهائيا لأنه من الناحية الثقافية والانتروبولوجية ترك آثارا على الأفراد والقيم المهنية والاجتماعية وتغيرات اقتصادية وحتى تغيرات على مستوى المدينة أو ما اصطلح عليه سوسيولوجيا بترييف المدينة، وكذلك أزمة في قيمة العمل والتوظيف جعل الدولة تدخل في سيرورة تدابير لتدارك هذا الشرخ بين جيلين مختلفين جيل الوفرة وجيل الانوميا الذي عانى من البطالة ونقص الوظائف والبطالة التقنية في ظل عقود ما قبل التشغيل.

في هذه المرحلة أصبحت الصورة مبهمة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، ولكن في نفس الوقت هي مرحلة التمايز الاجتماعي ما بعد الحداثة في الجزائر أو ما أفضل تسميته محاولة البحث عن الحداثة في عمق المجتمع والثقافة

المحلية؛ وهذا يقودنا للتساؤل من جديد: هل من الممكن أن نكتشف الحداثة الخاصة بمجتمعنا ونواكب التغيرات الثقافية الشامل في ظل مجتمع المعرفة؟

تاسعا: الهوامش:

1 "ألزانك" هي مؤسسة صناعية لتحويل معدن الزنك بمدينة الغزوات، الواقعة بشمال ولاية تلمسان والتي أنشأت سنة 1973.

2 جمال قريد، العامل الشائع: عناصر للاقتراب من الوجه الجديد للعامل الصناعي الجزائري، في مجلة انسانيات "العمل أشكال وتمثلات"، منشورات الكراسك، وهران، 1997، ص 7-11.

3 نفسه.

4 Dubar, Claude, *la crise des identités, l'interprétation d'une mutation*, PUF, 1ère éd, 2000, 2ème édition corrigée, Paris, 2001, p. 49.

5 Perroux, François, *Problèmes de l'Algérie indépendante*, Presses Universitaires de France, 1ère édition, Paris, 1963.

6 Sraib, Noureddine & Autres*, le mouvement ouvrier Maghrébin,* édition de CNRS, Paris, 1985.

7Benissad, M.E., *L'économie algérienne contemporaine,* P.U.F, 1ère éd, Paris, 1980, collection Que Sais-je ?

8 أشرنا إلى هذه الدراسة السابقة في أطروحتنا، أنجزها علي الكنز وأخرجها في كتابه التالي:

El Kenz, Ali, *le complexe sidérurgique d'El Hajar, une expérience industrielle en Algérie,* éditions du CNRS, Paris, 1987..

9 Benissad, H., *op.cit*.

10 جمال قريد، العامل الشائع، مرجع سابق، ص. 11-12.

11 Benissad, M.E., op.cit.

12خطابي، أحمد، إدراك العمال لوضعهم في مكان العمل، في قريد جمال (إشراف.)، ثقافات المؤسسة، منشورات الكراسك، وهران، 1997.

13 Sans auteur, "*le pari de l'ouverture"*, Collection CEPII, Europe Méditerranée, Collection disponible à l'institut de Monde Arabe de Paris.

14 Gilles, Ferréol, *dictionnaire de sociologie*, 3ème édition, Paris, 2004, p. 116.

15 Ibid., p. 118.

16 Levet-Gautrat, Maximilienne, *à la recherche de troisième âge : éléments de gérontologie sociale*, Pitaud, Philippe, (collaboration), Armond Colin, Paris, 1985, p. 69-70.

17 Ibid., p. 75.

18 Bolduc, Nathalie, *anticipations des travailleurs et pratiques d'entreprise en prévision de la retraite,* département de sociologie, faculté des sciences sociales, université Laval, Québec, 2008, p.01.

19 Ibid, p.28.

20 Idem.

21 Idem.

22Akoun, André, Ansart, Pierre (dir.), *Dictionnaire de sociologie*, le robert seuil, 1999, p.380.

23 Casassus, Cécilia et Desmarez, Pierre, *la sociologie industrielle américaine: origine, éclatement et retour à l'atelier,* groupe de sociologie de travail, université libre de Bruxelles.

24 Bolduc, Nathalie, *op.cit.,* p.01.

25 Idem.

26El Kenz, Ali, *le complexe sidérurgique d'El Hajar,* op.cit.

27 Benoist, J.M, cité par Saliba, Jacques, de l'identité aux identités, in revue champ psychosomatique, n°21,5, 2001, p.6.

28 Lattes, Jean-Michel, « la place de travail dans la sociabilité urbaine », *in Ceras-revue projet n°277*, décembre 2003, p. 01. URL:http : //www.ceras-projet.com/index.php ?id=1657